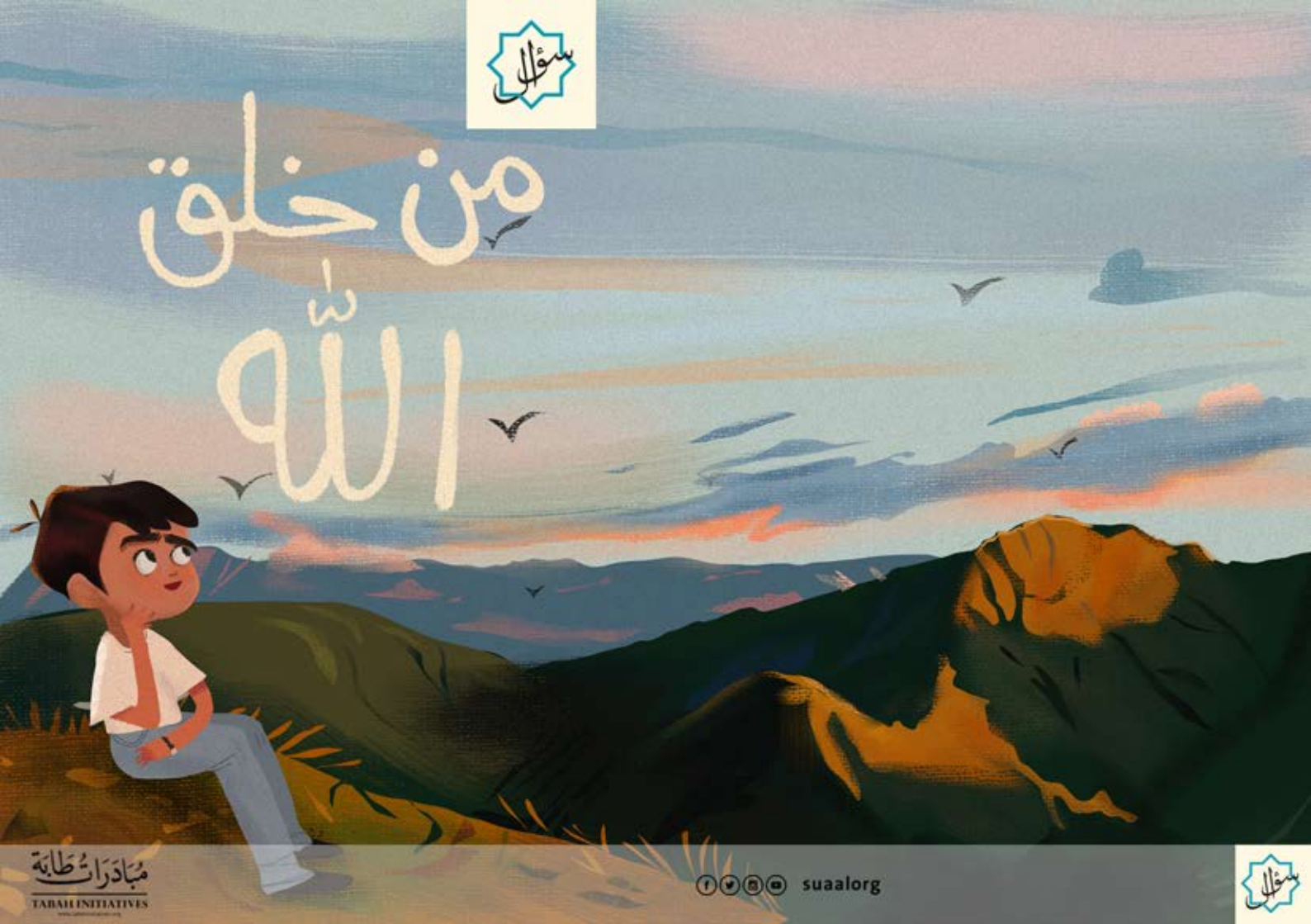
سؤال
من خلق الله
مبادرات طابة
TABAH INITIATIVES
suaalorg
سؤال

في صباح يوم جميل مُشْرِق من أيّام إجازة نصف العام،
استيقظ مؤمن متحمسًا؛ لأنه سيسافر مع فريق الكشافة
بمدرسته رحلة إلى مدينة سانت كاترين بجنوب سيناء،
وكانتْ والدتُه قَلِقَة عليه، فأخذ يُطمئِنُهَا قائلًا:
"لقد كبِرتُ يا أمّي، فعُمْرِي الآن تِسْعُ سَنَوات،
لقد أصبحت رجلا".

ابتَسَمَتْ الأمُّ واستودعتهُ اللهَ الّذي لا تَضيعُ وَدَائِعَهُ، ثُمَّ سَمِعُوا صوتَ حَافِلَةِ المدرسة، فَقَبَّلَ يَدَ والدته، وتوكَّلَ على الله، وَرَكِبَ مَعَ مُعَلِّمِه وأَصدقَائه وقالوا معًا دُعاء السفرِ، كان الطّريقُ طويلاً، لَكِنَّهُ كان مُمْتِعًا مَعَ الصُّحْبَة،وعندما وَصَلوا نَصَبُوا خِيامهم، واستَرَاحُوا قليلاً، ثُمَّ قَاموا كي يبدءوا تنفيذَ برنامج الرِّحْلة المُتَّفق عليه.

شرعوا في تَسَلّقِ الجبل، وعِند القِمّة جلسوا ليستريحوا ويستمتعوا بجمال الطبيعة الخَلّاب، نظر مؤمن إلى السّماء وشَعَر أنّها قَريبةٌ جدًا، وعندما غَرَبَتْ الشّمْسُ، كانت السّماء صَافية شَديدةَ السّواد تَلمَع بها النّجوم بِشدّة، وكأنّها مصابيحُ مُعَلّقَة في الهواء، حتى شعر مؤمن أنه كاد أن يلمسها بيديه، فكان مُنبهرًا جدًا ومُندَهِشًا، وأخذ يتفكر ويتأمل في هذا المنظر البديع وصانعه، وهو الله عزّ وجلّ.

وفجأة قال مؤمن لصديقه سليم:

أعلم أن من خلق هذا هو الله،

لكن من خلق الله؟

قال له سليم: اسْتَغفر الله يا مؤمن

لا ينبغي لك أن تسأل هذه الأسئلة، فإني قد سمعت

من قبل أن هذه الأسئلة حرام.

توقّفَ مؤمن عن السؤال، لكنه ظلّ طوال الرّحلة يتأمل ويفكر، وعندما عاد من رحلته أخذ يحكي لوالدته عن الرحلة بِحَماسٍ شديد، وسعادة بالغة، وأثناء كلامه تذكر حديثه مع صديقه سليم، فقال لأمّه: ألم تقولي لي يا ماما إنّ الله أمرنا بالتدبر والتفكر والعلم؟ لقد كنتِ دائما تُشجعينني على التفكير والسؤال، فقالت له ماذا حدث؟ فحكى لها ما حدث، وقال لها أريد أن أعرف من خلق الله؟ وهل صحيح أن هذا السؤال حرام؟

ابتسمت الأم، وقالت له سؤالك دائما يسعدني؛
أنت بالفعل كبرت وأصبحت أكثر ذكاء، وقد أخطأ
سليم صاحبك عندما قال لك إن هذا السؤال حرام؛
لأن الله أمرنا بالتفكر والسؤال، كما أن الصحابة
سألوا النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذا السؤال
وسألوه أسئلة أخرى كثيرة جدا عن الله وعن اليوم
الآخر فلم ينههم عن السؤال والبحث بل أجابهم
بنفسه، وكان القرآن ينزل ليجيبهم عن أسئلتهم،
وقد مدح الله كثيرا أصحاب البحث والسؤال.

قل لي أولًا: هل ممكن أن تسأل أختك الصغيرة ياسمين التي لم تبلغ عامها الأول فتقول لها: "أنتِ في أي صف دراسي؟".

قال مؤمن: السؤال مضحك يا أمي، فكيف تكون في صَفّ دراسي، وهي ما زالت صغيرة لا تمشي، ولم تدخل المدرسة بعد.

قالت الأم: أنت طفل ذكي ومفكر يا مؤمن،
لذلك سنجري معًا هذه التجربة: إذا أعطيتك كوبًا
من الماء وقلتُ لك: "ما الشيء الذي يُمكنُ
أنْ تَضَعَه في الكوبِ لِيَجْعَلَ طَعْمَ الماء حُلوًا؟"
فأجاب مؤمن على الفور: "أن نضع فيه قِطع السُّكّرِ
أو العَسَل".
قالت الأم: هذا رائع .. الآن ضع بعض السكر للكوب ..
لنرى كيف صار طعم الماء.. تَذَوَّقْهُ الآن؟
أرأيت كيف أصبح حلو المذاق؟!
قال مؤمن: نعم يا ماما.

ثم قالت الأمُّ: والآن أخبرني: "ما الشيء الذي ممكن أن تضعه على السُّكر ليكونَ السكر حلوًا؟

فقال لها مؤمن في استغراب: "كيف أجعله حلوًا؟ هو في الأصل حلو وهو الذي نُحلِّي به الأشياء، وليس العكس.

فقالت الأم في ابتسام: أحسنت أيها العبقري! فهناك أسئلة غير صحيحة أصلًا، بل إنها مضحكة، فكما أن سؤال "ما الذي نضعه للسكر كي يَحْلَوَ؟" هو سؤال خاطئ، فأيضًا أن نسأل (من خلق الله؟) سؤال غَير صَحيح. فكيف يصحُّ أن نسألَ: من الذي خلق الخالق؟ فلو كان لله خالقٌ لكان مخلوقًا مثلنا، وتساوى الخالق والمخلوق.

فمن صفات الله أنه "الخالق" أي الذي أوجد كل شيء من عدم، وجعل لهذه الأشياء شكلا ووظيفة، ألم تحفظ قوله تعالى في سورة الحشر:

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: 24].

ثم سألت الأم ولدها: قُلْ لي يا مؤمن إذا أقيمت مُسابقة للجري في مدرستك، وأعلنوا أن (يوسف) صديقك هو الفائز الأول؛ لأنه سريع جدا كما أخبرتني، هل من الممكن أن نسأل: من الذي وصل قبل يوسف في السباق؟

قال مؤمن: لا، لأنه (أول) متسابق وصل.

فقالت الأم: ولله المثل الأعلى فالله هو (الأول)
الذي لم يسبقه أحد في وجوده، وهو من خلق وأوجد
لنا كل هذه الدنيا الكبيرة، فالله هو الخالق الذي
لم يلد ولم يولد، ولمْ يكن له كفوا أحد.
ثمَّ سألت الأم مؤمنًا مرة أخرى:
هل ترى هذا المُشترك الكهربائي
الذي وضعنا فيه شاحن الكمبيوتر؟
فقال مؤمن: نعم أراه، إنه وسيلة لوضع أكثر من شاحن،
أو لتوصيل الكهرباء إن كان سلك الشاحن قصيرا.
فقالت الأم: نعم. هل من الممكن أن يعمل هذا الشاحن
إذا لم نضع المشترك في مفتاح الكهرباء الذي في الحائط؟
فقال مؤمن: لا بالطبع يا أمي، لابد أن يكون عندنا مصدر
للتيار الكهربائي، وإلا لن يعمل الشاحن أو الكمبيوتر.

فردّت الأم سريعًا: طيب ما رأيك إن قال لك أحد زملائك:
سنضع فيشة المُشترك الكهربي في مُشترك آخر،
ولن نقوم بتوصيل فيشة المُشترك الثاني في مصدر الكهرباء
في الحائط. فهل سيعمل سلك الشاحن في هذه الحالة؟
قال مؤمن في ضحك: لا يا أمي، حتى لو قمنا بتوصيل
عشرة أجهزة مشترك كهربي بعضها ببعض ولم نضع سلك
المشترك الأخير في مصدر الكهرباء في الحائط
فلن يعمل الشاحن ولن يفتح جهاز الكمبيوتر أبدا.

ابتسمت الأم في سعادة وقالت: أحسنت يا مؤمن،
وكذلك كل هذه المخلوقات لابد أن يكون لها خالق واحد،
هو مصدر الوجود، ومصدر النور في كل هذا العالم،
ولم يستمد وجوده من أحد غيره، يكون هو الأول
الذي ليس قبله شيء، حتى يُعطي النور والجمال
والوجود لكل شيء في الدنيا.
إن الله هو الذي صنع وصوّر كل شيء، وهو السبب
في النِّظام والدِّقة والجَمال الموجود في كل هذا الكون،
انظر إلى ورقة الشجر، وريشة الطاووس، وجناح الفراشة،
اشتمّ عطر الأزهار، وتأمّل لمعان نجوم السماء
وفي ضوء القمر؛ فالله هو سبب كل شيء وليس العكس،
فوجود النهار لا يحتاج إلى دليل وأنت ترى ضوءه
في كل شيء من حولك، على قمة الجبال
وفوق صفحة المياه والبحار، وفي وجوه الناس في الشوارع.

ابتسم مؤمن وشكر أمه واحتضنها قائلا
" الآن قد عرفت الله ".